حول التصوف السنى وتصوف الوحدة

للاستاذ أبو الوفا الغنيمى التفتازانى
مدرس الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة

تفضلت مجلة الاسلام والتصوف بالتعليق على مقالى السابق بها ، وجاء فى هذا التعليق أنها تختلف معى فى موضوع تقسيم التصوف الى تصوف سنى وتصوف وحدة ، وتقرر أن التصوف الاسلامى على تعدد معارفه والهاماته انما يستمد وجوده وعلومه وآدابه من القرآن والسنة ، وأن كل من ابتعد عن هذا النبع الربانى فقد ابتعد عن التصوف .

والواقع أن تقسيم التصوف الى تصوف سنى وتصوف وحدة ليس من جانبنا ، وانما وقع هذا التقسيم من جانب بعض مؤرخى التصوف والمعنيين بدراسته من ناحية مذاهبه النظرية .

ولا أدل على ذلك من أننى أوردت فى المقال المشار اليه نصا للسيوطى فى هذا الشأن ، يفرق فيه بين التصوف الذى يعمد أصحابه الى مزجه بموضوعات الفلسفة (بما تنطوى عليه من مباحث الوحدة، ومباحث الوجود، والارواح وقدمها ، والهيولى .. الخ) ويسميه بالتصوف على طريقة الفلاسفة ، والتصوف الذى يعنى أصحابه بالجانب التربوى الخلقى أكثر من العناية بالخوض فى مباحث الوجود ، وهو التصوف الذى يمثله الشاذلى ومدرسته ، ومن قبله الامام الغزالى ومدرسته ، ويسميه بعض مؤرخى التصوف بالتصوف السنى ، اما لان أصحابه كانوا من أهل السنة ، أو لانهم كانوا يتقيدون فيه بظاهر الكتاب والسنة . وليس فى هذا التقسيم ـ من الناحية العلمية ـ مايتضمن الحط من شأن الصوفية الذين مزجوا أذواقهم الروحية بأنظار الفلسفة ، أو الذين كانت لهم أحوال وجد خاصة جعلتهم يعبرون **عن حقائق التوحيد** بطريقة رمزية لايفهمها الا هم أو من وصل الى مرتبتهم الروحية فى السلوك ، كالحلاج والبسطامى وابن عربى وابن الفارض ومن اليهم من كبار الصوفية .

هذا وقد ذكرت فى هامش المقال ذاته دفاعا عن مذاهب أولئك الصوفية مانصه : « الواقع أن الهجوم على مذاهب هؤلاء الصوفية محفوف بالمخاطر، ولا يصح فى رأينا أن نهاجم أصحابها ما لم نصل الى ماوصلوا اليه ، وما لم نتذوق ماتذوقوه ، فعلومهم ذوق خالص يحصل بالمجاهدة ، وعرفان خاص يحصل بالمشاهدة ، والمهاجمون لهم يصطنعون العقل ومناهجه فى نقدهم ، وهو خطأ منهجى منهم »

ولزيادة الايضاح نقول : ان بعض الصوفية الذين كان لهم نصيب

واثر من دراسة الفلسفة والمعرفة بمناهجها واصطلاحاتها قد مزجوا التصوف بموضوعات الفلسفة ، وخرجوا لنا بنظريات هي مزيج من الذوق والفلسفة ولعل أبرز هؤلاء ابن عربي وابن الفارض وابن سبعين والصدر القونوى وعفيف الدين التلمساني ، ولما كانت كتبهم صعبة الفهم لما تضمنته من اصطلاحات خاصة ، كثر الهجوم عليهم من جانب الفقهاء أهل الظاهر الذين ليسوا بصوفية والذين لا يصطنعون منهج التأويل في نفس الوقت ، فحكموا عليهم بفساد العقيدة ، وقد ذكر عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب أنه وان كان يقر طريقة الصوفية ، الا أنه لايتكلف لامثال أولئك الصوفية تأويلا في عباراتهم ، وهذا هو السبب الرئيسي الذى من أجله أخطأ الوهابيون ومن قبلهم ابن تيمية في حكمهم على أولئك الصوفية وفي أنهم نسبوا اليهم القول بالوحدة المادية أو بالحلول الحسى أو بما شابه ذلك من نظريات تخالف الاسلام ، ولو تدبروا عباراتهم بعين الانصاف لوجدوها متمشية مع الكتاب والسنة ، ومنطوية على عرفان بالله لاتشوبه شائبة .

أما شرح تلك المذاهب النظرية لاولئك الصوفية والملاءمة بينها وبين الكتاب والسنة فأمر يطول شرحه وبيانه ، ونكتفى الآن بهذا الايضاح الموجز الذى نرجو أن يكون فيه غناء للقارى الكريم .

المجلة :

يسرنا أن نلتقى مع الأستاذ « التفتازانى » على محجة بيضاء من الفهم المبين ، والمنهج العلمى المضيء ، لرسالة التصوف ، باعتبارها ، جوهر الاسلام وروحه ، وأفقه العالى ، وكماله الخلقى .

ويسعدنا أن ينتهى بنا الحوار الى أن يقول : « .. أخطأ الوهابيون ومن قبلهم ابن تيمية فى حكمهم على أولئك الصوفية ، وفى أنهم نسبوا اليهم القول بالوحدة المادية ، أو بالحلول الحسى ، أو بما شابه ذلك من نظريات تخالف الاسلام ، ولو تدبروا عباراتهم بعين الانصاف ، لوجدوها متمشية مع الكتاب والسنة ، ومنطوية على عرفان بالله لا تشوبه شائبة » .

ورجال التصوف ، وهم أهل ذوق ووجدان ، ومناجاة والهام ، لهم أسلوبهم وعباراتهم ومصطلحاتهم ، كما لكل علم من العلوم ، أسلوبه ، وعباراته ، ومصطلحاته ، فالمتحدث عنهم لابد له من الاحاطة ، بأسلوبهم ومصطلحاتهم وذوقهم حتى يدرك أفق كلماتهم ، وكما يقول الامام السيوطى « ان وقع فى كلامهم الوحدة ، فمرادهم به التوحيد ، وانفراد الله بالوجود ، ولوازم الوجود ، لا ذلك الذى يرده أولئك - أى خصوم الصوفية » .